حول الموت

فكرة الموت والخوف منه من اكثر الافكار المرعبة عند الكثيرين، وقد ترافق هذه الفكرة بعض الناس طوال حياتهم سواء بالحرب ام بالسلم.
نتيجة الحرب الدائرة الان في غزة وخبرتنا خلال ما يقرب من مئة يوم لتجربة الموت التي نحياها يوميا وكم المرات التي نجونا بها من موت محتم، تجعلنا نستطيع الحديث عن بعض اسرار الموت التي لطالما كانت من الاسرار المحفوظة في سرداب غامض لا يعلم وجوده احد. ولكي استطيع ان اشرح ما اعنيه لابد لي من مشاركتكم ببعض الاشياء النفسية التي لها علاقة بالموت، كيف تطورت منذ بداية الحرب وحتى الان.
فمثلا في الايام الاولى للحرب، كنا حينما نسمع الصاروخ يسقط في محيطنا نموت رعبا، وفورا نجري بأي اتجاه كان دون وعى، وحتى الكثير منا كان يفعل اشياء مضحكة من شدة الخوف؛ كأن تضع رأسك تحت اللحاف او اذا كنت ماشيا تنحني قليلا، وهكذا تكون قد حميت نفسك. وبعد فترة، قل خوفنا وبتنا نتندر ونسخر من حركات بعضنا البعض اللاإرادية. ومع المدة ولكثرة سقوط الصواريخ بجوارنا بتنا نحلل ما يحدث عند سقوط الصاروخ، واصبح الخوف من سقوط الصاروخ وصوته العالي أقل.

والدرس الاهم او الخبرة العملية المكتسبة اننا ادركنا جميعا ان من يسمع الصاروخ ويشاهد تساقط زجاج النوافذ وطيران الحجارة عليه، وعلى منزله من منزل مجاور قد دمر للتو، هو دليل على أنه ما زال حيا، وقد كتب له عمرا جديدا. فبتنا نقول لبعضنا فور سماعنا الصاروخ حمد الله على سلامتكم، المرة هاي فلتنا!
وبدأنا ندرك ان من لا يسمع الصاروخ هم الشهداء والمصابين. معظم من اصيبوا اصابات قاتله او متوسطة حينما كانوا يحدثونا عن تجربتهم، كانوا يخبرونا انهم لم يشعروا بشيء بتاتا. كأن يقول لك أحدهم، كنت اشرب الشاي افقت بالمستشفى وامي تبكي بجواري ولا اعلم لماذا تبكي. وقد يكون هذا الشخص قد بترت ذراعاه او اقدامه. او اصيب بقذيفة بالرأس او بالبطن. بمعنى اصابات قاتله، كأن يكون في عداد الاموات الذين استشهدوا بجواره. اعتقد ان من استشهدوا فورا بالحرب نتيجة الصواريخ، لم يشعروا بشيء بتاتا، كانوا كالنائمين. بمعني لو كان شخص نائم وقصف منزله ومات، يظل نائم فقط لا يشعر بشيء.

ومن خلال تجربة شخصية لي في انتفاضة الأقصى، تجمعنا عدد من الكتاب والمثقفين والفنانين بمسيرة الى بنك الدم، للتبرع بدمائنا للمصابين. كنت قبل شهرين قد تبرعت بالدم لقريبتي، ويمنع التبرع الا بعد ستة شهور. تقدمت وتبرعت بوحدة دم كنت جالسا على السرير ثم افقت وانا ملقى على ظهري على الارض وقدماي للأعلى ووجهي مغطى بالماء، كان قد اعمى علي. اخبرني صديقي انني ظللت ما يقارب من الثلاث دقائق وانا مغمى علي، وكنت على مشارف الموت لو استمر الاغماء لدقيقة اخرى. طبعا لم اشعر بشيء بتاتا، ولو مت وقتها كنت فقط سأظل نائما.

الموت مشكلة الاحياء. الاحياء من بعد المتوفى، من اهل واصدقاء يتعذبون لغيابه، فبعض الناس يظل حيا أبد الدهر، والبعض الآخر يموت بعد الدفن. لكن الموت تجربة قاسية على الاحياء.

اتمني السلامة للجميع، وان تتوقف هذه الحرب المجنونة.

2024/1/12
علي ابو ياسين